

# الرئيس فؤاد شهاب كما عرفته

بقلم العميد المتقاعد ميشال ناصيف

تعددت الدراسات والنقاشات حول الرئيس اللواء فؤاد شهاب وطريقة إدارته للبلاد وسعيه لترسيخ إستقلال



الدولة . وثمة أمور لا تزال قيد الجدل . وبكوني كان لي شرف الخدمة بقربه كضابط مرافق، فلعلّ من المفيد أن أعرض لوقائع خبرتها، مستمياً تمّني هذا القائد الإنسان وزوجته الفاضلة عذراً بالأ يوتى على ذكر هذه الوقائع من قبل المقربين (كان قد عين العميد الركن ميشال ناصيف ضابطاً مرافقاً للرئيس شهاب منذ عام 1960 و ظلّ على صلة به حتى وفاته عام 1973)، بل أن يترك أمر الحكم عليها للتاريخ ... وذلك إستخلاقاً لعبر في سبيل بناء دولة سيّدة حرّة مستقلة ولتحقيق الصالح العام لجميع أبناء الوطن.

وإنّ ما سأرويّه قد لا يقنع فئة من اللبنانيين، إلا أنني وطوال تمرّسي بالمسؤوليات المختلفة، لم أقف إلا عند الحقيقة التي أراها.

حكّم اللواء شهاب فعلياً، مدة وجيزة، لم تتعدّ السنوات الخمس، إذ إنّه عمل، في أوائل عهده على تهدئة البلاد من جرّاء أحداث 1958 ، ثم اصطدمت عجلة حكمه، لبعض الوقت بمحاولة الانقلاب عام 1962.

أمن فؤاد شهاب بالتطوّر Evolution فكان بعيداً كل البعد عن مفاهيم الثورة Revolution. فهو ديمقراطيّ في تفكيره ونهجه، في جميع حقول العمل التي خاضها في لبنان، بلد تعددية المآرب والطوائف، والذي لا حياة مستقرة فيه إلا بنظام حرّ تسوده المبادرة الفردية .

## فؤاد شهاب الإنسان والعائلة

فؤاد شهاب لبناني كبير ، عصامي وأنوف ومثالي في حياته الخاصة والعامة، نشأ في بيت لبناني عريق، بكنف حنان والدة جليّة، وبعهدة أحوال ذوي أصالة تاريخية . وتميّز، منذ نعومة أظافره، ورغم ضائقة مائيّة أحاقت به، بالإباء والشهامة والترفع عن الماديات. وأظنه لم يسع يوماً للظهور والبهرجة فأعماله ورسائنته وأخلاقه الحميدة تشهد له. وها نحن، واحد وثلاثين سنة على رحيله، نذكره بالخير ونستشهد بإنجازاته واحترامه للقانون ودأبه على بناء الدولة.

لم تبهره السلطة، فكان متواضعاً وقنوعاً، يثابر على نسق معيشي واحد، اتّصف بالبساطة والوقار . لم أره يوماً من دون ربطة عنق، أبي سكنى القصور. منزله في جونية والذي ورثه عن أمه وأخواله، يتألف من ثلاث غرف وصالون ومكتب ، أثاثه عاديّ جداً، لكنه مزدان بتحف ثمينة كمثل لوحات زيتيّة لصلاح الدين الأيوبي والأمير بشير الثاني الشهابي والشيخ طالب حبيش (جده)، وصور موقّعة من قداسة البابا بولس السادس والرئيس شارل

ديغول والرئيس جون كندي، فضلاً عن أيقونات ولوحات دينية . وهو كان يكفي حاجات بيته (بما فيها من رسوم كهرباء وهاتف وماء ... مع أنه معفى منها بموجب القانون) من مرتبه الخاص، ويشرك به الفقراء ودور العبادة وبعض المؤسسات الإجتماعية .

طعامه كان ممّا تعدّه زوجته، ولا يغادر المنزل إلا لواجب الخدمة او زيارة بعض الأقارب والكنائس، لم يشارك يوماً في مهرجان أو مناسبة ترفيهيّة خارج نطاق مقتضيات البروتوكول والدّواعي الوطنيّة .  
أمّا جليسه فيتهدّب أن يبادره بموضوع لا يمتّ إلى العمل بصلة . وإذا استذكرنا، بالمناسبة، حيثيات مقابلته للرئيس المصريّ جمال عبد الناصر على الحدود اللبنانيّة السوريّة، فلكي نذكر بأنه لم يقم بأيّة زيارة إلى الخارج تحاشياً لإثارة الحساسيات الكامنة في مشاربنا .

هو مؤمن، راسخ الإيمان، يحترم ويجلّ الأديان السماويّة، فلم يعرف التعصّب إليه سبيلاً . وقد كرمّ العذراء مريم ، فوضع صورتها أو تمثالها على مكتبه في البيت وفي القصر، وانار مقامها في حريصا من ماله الخاص طوال ايام رئاسته . وكان يومياً، وهو في طريق العودة من العمل إلى البيت وكلّما بان تمثال سيّدة حريصا من بين أشجار الطريق، يحيي راسه خشوعاً ويتمنم صلاة، وكم زار معابد العذراء، في مختلف مناطق لبنان برفقة زوجته .  
صحيح أن بعض الفتور شاب علاقته ببعض القيميين على بعض المقامات الدينيّة، إلا أن احترامه لهذه المقامات لم يزعزه شيء وهنا أتذكر كيف أنّه أصدر الأوامر جازماً بإبعاد جميع الحواجز العسكريّة عن كرسيّ بكركي، إثر لجوء بعض قادة القوميين إليه بعد فشل انقلابهم عام 1963، وبفتح الطريق لهم لإخلائه.

نعم لقد تحمّل الرئيس شهاب أوزار الحكم في لبنان بمسؤولية وضمير حيّ . فكان يعمل لا أقلّ من اثنتي عشرة ساعة



في اليوم . فبعد انتهاء المقابلات في مقرّ الرئاسة، يعود إلى بيته لينصرف، بعد استقبال بعض افراد العائلة ولوقت قصير، إلى البريد اليوميّ، يرده من مختلف الوزارات والمؤسسات فضلاً عن مكتب الرئاسة . يقرأ ويدرس ويدوّن ملاحظاته وتوجيهاته ويطلب بالتالي الإفادة عن النتيجة . وهنا تحضرني القضية الآتية :  
عام 1963 تأسست في بيروت جمعيّة خيريّة لإيواء الأيتام، وقد طلب رئيس وزراء سابق أن يرعى ويحضر الرئيس شهاب حفل الإفتتاح ... الرئيس شهاب قبل الرعاية فقط وفقاً للعرف المتبع .... حاول رئيس الوزراء، وكان على احترام كلّي لشهاب، معاودة الطلب، وقد طلب إلي شخصياً تذكير فخامته بذلك . تحيّن

الفرصة وكرّرت "بتأن" رغبة رئيس الوزراء ، فأجابني الرئيس وبطريقة الأمر الناهي:

*Je suis là pour gouverner et non pour régner* (لها معنى Péjoratif بالنسبة لي كضابط) لا تدرك الفرق ما بين *gouverner* و *régner* ففتش في قاموسك ... فإذا قبلت دعوات شتى فمن يقرأ ويحلّل البريد "ألما شاء الله" الذي تحملونه إليّ كلّ يوم...افهموا للمرّة الأخيرة طريقي في العمل .

لقد عاش الرئيس شهاب في عالمه المثاليّ، برفقة زوجة صالحة هانئة، قاسمته الحياة كما أراد . ركن إليها وأخذ برأيها، فكانت له المعين في عمله الوطنيّ، فلم تشأ الظهور، وهي فرنسية المولد، لئلا تؤثر في مساره الوطني .

لقد أحببت المطالعة والمعرفة كزوجها، وكثيراً ما كانت تلخص له بعض التقارير والكتب الفرنسية . كما كان يطلب مني أيضاً تلخيص بعض مقالات الصحف الأجنبية كجريدتي La Croix و Le Monde . وكان لقرينته أيضاً مع "سلطة روحية عالمية " الدور الفعّال في إقناعه بالعودة عن استقالته عام 1960 . وقد أحببت ألسنت روزيت لبنان والجيش اللبناني إلى حدّ لا يوصف، وتألّمت إبان أحداث 1975 وما بعدها . ثم احترمت ذكرى زوجها وسهرت على ترميم مدفن العائلة في غزير، ولم تغادر جونه يوماً إلا لزيارة الضريح أو لحضور قدّاس على نية الراحل فؤاد وحاولت أن تكمل عمل الإحسان بما تيسّر لها من إمكانيات مادية . وحافظت على وصيته . ونظّمت وصيته (عيّنت مدام شهاب العميد ناصيف منفذاً لوصيته، وقد قام بالواجب في حينه بإشراف معالي الوزير الأستاذ فؤاد بطرس ) على غرار ما جاء في الوصية الأولى ...

إنّ فؤاد شهاب لم يمتلك الأموال المنقولة أو الغير منقولة . فقط حافظ على ما ورثه من عائلته، وأعاد الوزنات إلى الورثة، مع ذكرى نبيلة مشرّفة لكلّ منهم . وما تجدر الإشارة إليه أيضاً هو أنّ شقيقه، الموظفين في الدولة، ظلّ من دون ترقية أو تمييز طيلة مدّة رئاسته . وبعد تفعيله لمجلس الخدمة المدنية وتعيين قاض نزيه في رئاسته، أتته يوماً سيّدة مسنّة من ذويه مع بعض أقاربه طالبة اليه تعيين اثنين منهم : الأول محافظاً والثاني قائمقاماً . كان يجلّ هذه السيّدة ولا سيّما أنها ساعدت والدته وأخواله في تربيته مع أخويه القاصرين ... فوعد الخير . لكنّه أجاب بعد يومين بأنّ لا مانع لديه من التعيين، إنما عليهم اقناع ابن خالتهم رئيس الخدمة المدنية الشيخ فريد الدحداح المتمسكّ أبداً بالنظام والقانون، فالمرشحان لا يستوفيان شروط التعيين كمحافظ أو قائمقام . وبالطبع لم يتمّ التعيين لئلا يخالف الكتاب .

## فؤاد شهاب والجنديّة

في أوائل العشرينات، دخل الأمير فؤاد عبد الله شهاب إلى المدرسة الحربية في الشام، وتخرّج منها ضابطاً مقاتلاً طليعاً لدورته Major de Promotion . وقد خدم، أيّام الإنتداب الفرنسيّ، وطوال عشر سنوات ويزيد، في فرق جيش الشرق Troupes Spéciales du Levant في سوريا ولبنان . فاشترك في عمليّات حفظ الأمن، ما أتاح أنّ يرقى إلى رتبة نقيب ويمنح أوسمة عسكريّة ومنها وسام الحرب . وفي هذه الأثناء اقترن بالآنسة روزيت، ابنة الكولونيل بواتيو Boittiou . ثمّ أصبح أول ضابط غير فرنسيّ يتسلم قيادة وحدة مستقلّة في راشيا الوادي، وبأمرته ضباط وجنود فرنسيون . من ثمّ أصبح قائداً معاوناً لقائد الفيلق المتمركز في مرجعيون . وخلال العام 1939 عين

لمتابعة دورة الأركان العليا في فرنسا . لكنّ نشوب الحرب العالمية الثانية أعاده إلى لبنان، فعين في أركان جيش الشرق في بيروت، حيث عمل في الشعبة العمليّة التي رئسها الجنرال ديغول، لمدة خمسة أشهر . ولمّا نال لبنان استقلاله، عين قائداً للجيش، ورقى إلى رتبة عميد فرتبة لواء . في الخمسينات، وكنت من ضباط المدرسة الحربيّة ثمّ الوحدات القتالية، كناً، كضباط، في الغالبية المطلقة، نحترم قيادتنا ونجلّها في شخص اللواء شهاب، لنزاهته وتجردّه وحسن إدارته .

ومرّت الأيام، وانتخب اللواء رئيساً للبلاد . وعيّنت، في أول السنين، ضابطاً مرافقاً له . وحين تقدّمت منه، بادرني بالسؤال : أتعلم من أتى بك إلى هنا ؟ ومن دون أن ينتظر جواباً، أضاف : إضبارتك Dossier . وعليك أن تعلم بأنّ هنا تكتة كباقي التكتات العسكريّة، مع اختلاف قليل في العمل . فإذا مشي الحال بتصلّ، وإلا تعود إلى تكتة اخرى .... ولا فرق . ويبدو أنّ بعض التآثر بان على وجهي ! وهكذا بقيت إلى جواره، وبعلم رؤسائي العسكريين، حتّى وفاته بل وفاة زوجته أيضاً . وإني أعتبر ما قاله لي يومها أهمّ شهادة أنالها في حياتي .

عام 1969، عندما كنت رئيس شعبة العديد في قيادة الجيش بالبرزة، كلفت بمهة استطلاع حيثيات تطبيق التجنيد الإجباري في فرنسا . فتسّى لي الإطلاع على بعض إضبارات Dossiers الضباط اللبنانيين الذين خدموا في جيش الإنتداب، ومنها إضبارة النقيب فؤاد شهاب، وقد جاء فيها : ضابط مميز، محترم، ذو مقدرة على التحليل والإستنتاج ، وينقهم واقع المهام اللتي يؤديها . يحب المطالعة .... ولم يكن يوماً ممالئاً لسلطة

الإنتداب N'a jamais été avenant، بل ينزع إلى الإستقلالية ... وينتظر أن يكون له مستقبل واعد

... هذا التقييم سرّي، للسلطات الفرنسية فحسب، ولا يسمح لأصحاب العلاقة الإطلاع عليه .

ولدى عودتي إلى لبنان، أفدته بما اطّلت، فوجم قليلاً وقال : كُنّا ندرك بأنّ ثمة تقييماً لكلّ منا، إلاّ أنّه سرّي وبتصرّف القيادة الفرنسية فقط . وأضاف أنا دائماً مع أبناء وطني من أية منطقة كانوا .

### فؤاد شهاب رجل التنظيم والمؤسسات



كان فؤاد شهاب في رئاسة الجمهوريّة كما كان في قيادة الجيش ، يعمل على رأس هرم منتظم، محدّد المهام والصلاحيات، ولا يتخذ قراراً إلا بعد دراسة وافية، قانوناً وإنماءً وواقعيّة .

نظّم رئاسة الجمهوريّة وفق متطلّبات العمل، فإذا هي من حيث المبدأ أشبه بتنظيم القيادات العسكرية، أي الأركان، فاستحدث ثلاث مديريّات عامة أقام على رأس كلّ منها قادة أكفاء تميّزوا بالعلم والشخصيّة والمصداقيّة... حتّى أن أحد الوزراء الكبار كان يقول بأن المرسوم يمرّ، إذا اقترنت التواقيع بإشارة الوزير الخامس عشر، أي المدير العامّ المسؤول في رئاسة الجمهوريّة، غير أنّ هذا الأخير لا يضع إشارة موافقته إلا بعد موافقة الرئيس شهاب . وهكذا الأمر

بالنسبة إلى سائر مؤسسات الدولة الأساسية كالخدمة المدنيّة والتفتيش المركزيّ والمصالح المستقلّة ... وقد وثق الرئيس شهاب بمعاونه حتّى ثبوت العكس، وكان من الصعب جداً أن يغيّر رأيه في شخص تعاون معه .

في أداء مهامه الرئاسية، خصّص ثلاثة أيام من الإِسبوع لإستقبال السفراء والنواب والشخصيات الدينيّة والدينيّة، ويوماً لمجلس الوزراء . ويوم الخميس لدراسة المشاريع ومخطّطات الإنماء في منزله مع كبار المسؤولين والخبراء، ويوم السبت لاحتياطيّ العمل، ويوم الأحد لعائلته ولإستكمال بعض الدراسات ولمطالعاته الشخصيّة . ولأنّه لا يلمّ بجميع المواضيع كما كان يصرّح ، قد كان يستعين بالخبراء والإختصاصيين، ولا سيّما الأجانب منهم إعتقاداً منه بأن لا مصلحة شخصيّة أو عائليّة لهم في لبنان . وقد حباه الله حسّاً رشيداً Bon sens ومقدرةً على التحليل خوّلاه اتخاذ القرار الأصح في كلّ موضوع .

أخذ على الرئيس شهاب تشاؤمه في بناء الدولة، ولا سيّما لدى تعاطيه مع بعض السياسيين التقليديين . لكنّ ذلك التشاؤم ظلّ بناءً وفاعلاً ومجدياً . فقد عمل حتّى نهاية عهده من دون كلل أو تباطؤ . احترم الدستور ونظّم العمل الديمقراطيّ . وإذ قبل رئاسة الجمهوريّة عام 1958، فعلى مضض، خشية أن تراود عقول بعض الجند أصداء السلطة فيقع لبنان في سلسلة تغيّرات وانقلابات، وهو بلد النظام الحرّ، فنقضي على الوطن نهائياً . إني مؤمن بهذه النظرية، بعد درس تلقّنته، على مدى شهرين، من الرئيس شهاب بالذات، إثر محاولة إنقلاب عام 1962، وما زلت حتّى اليوم، وبالرغم ممّا أصابنا من مأس على مدى نحو عقدين، على قناعاتي هذه .

ومع احترامه للدستور وللمؤسسات، كان الرئيس شهاب يأخذ بعين الإعتبار واقع كلّ منطقة من لبنان، وكان على معرفة بحاجات كلّ منها إذ أنّه عاش، قبل تسلّمه مقاليد القيادة، في الشمال والبقاع والجنوب . وقد ألمه التخلف في المناطق النائية على جميع الأصعدة، فصمّم على الإنماء المتوازن، وسعى إلى تأمين الحاجات الضرورية وتحقيق

البنى التحتية هناك، وعندها يطالب أبناء هذه المناطق بتأدية موجباتهم تجاه الدولة . وهكذا نحدّ من الفقر، وبالتالي من الإخلال بالأمن... وهنا تحضرني هذه الواقعة :

إثر محاولة الانقلاب عام 1962 وتوقيف الكثير من المشتبه بهم في هذه المحاولة، ورد بين المطلوبين اسم ابن مصطفى طعان دندش (أبو مشهور) وهو زعيم في العشائر . علم أبو مشهور بالأمر وأسرع في طلب موعد من اللواء شهاب، وكان على معرفة به إثر أحداث العشائر في البقاع عام 1948 . حدّد الموعد للسيد مصطفى وقبل مقابلته الرئيس، جلس في مكنتي منتظراً . سألته، وكنت على معرفة به أيضاً، عن تصرفه في ما لو كلفت بتوقيفه في بقاع الهرمل .. انتفض لتوه قائلاً : "ذلك غير ممكن قطعاً، أنا لا أعود إلى الهرب من وجه العدالة كالسابق طالما أنني أنال حقوقي . أم مشهور تعيش معي في منزلي المجهّز بجميع وسائل الراحة، وبناتي يتعلّمن في مدرسة الراهبات ، وابني مشهور الذي تطلبونه يتابع دراسته الجامعية في بلجيكا، وتريدني أن أرجع إلى حياة الشقاوة ؟ نحن سكان المناطق البعيدة ننال حقوقنا من دون مئة، ونحن من أبناء هذا الوطن المخلصين . كلّ ذلك بفضل هذا الرئيس النبيل!"

قبل استقبال أبو مشهور، أفدت الجنرال، وهي تسمية محببة إلى نفسه بدل فخامة الرئيس، بما جرى... فنظر إليّ ملياً من دون تعليق، ثم قال : فليتنفّض أبو مشهور .

في نهاية المواعيد استدعاني الجنرال وشرح لي بأنّ أمنيته أن يصل كلّ ذي حقّ إلى حقه، وسيسعد عندما تنفّذ برامج الإنماء التي يعدّها في كلّ بقاع لبنان، وفي كلّ حال هو مع درهم الحقّ أينما كان. كان الرئيس شهاب يأنف من سفك الدماء نَعَم في أعماقه بالرحمة والرأفة .

وحرص أن يحافظ على حياة كلّ مواطن، ولا سيّما جند لبنان . أمّا إذا دعت الحاجة فيأمر بالقوّة لتثبيت النظام .

وقد أرى أن ينصاع لأية سلطة أو دولة مهما عظمت . هو رئيس البلاد المستقلة، يمثل السيادة الكاملة . يتعاطى مع سائر الرؤساء من النّدّ للنّدّ . يتعاون مع ممثلي الأمة باحترام كلي . وكان يعلم بأنّ رئيس جمهورية لبنان لا يمكنه، بحكم الدستور والواقع الديمغرافي، سوى توقيع مرسوم واحد هو استقالته . وبخلاف ذلك، يلزمه توقيع سلطتين آخرين على الأقلّ لإمكانية التنفيذ . فبسبب هذا الواقع، عمل فؤاد شهاب بتعقل وتؤدة، فمشى لبنان في طريق السلام والإزدهار .

أذكر أنني ، ليلة محاولة الانقلاب، وبصعوبة كلّية، كنت أوّل الواصلين إلى منزله فجراً، وكنت ، بعيد منتصف الليل، من أوائل المتصلين به مفيداً عن هذه المحاولة . وفي لحظة لقائي به بادرني قائلاً : " لا أريد أن تسيل نقطة دم واحدة من أي فرد من لبنان . إنني مستعدّ للذهاب مع الانقلابيين .... وليكن ما يكون .... حاول أن تهديء من حماس قائد الحرس والخ...أجبتّه فوراً Mon Général كلّ منا يقوم بواجبه . أنا مرافق لك، ومن مهامّي الدفاع القريب عنك .... أمّا قائد الحرس، وكان مندفعاً وصادقاً للغاية فسمع كلام الرئيس وراح يصرخ من جنينة المنزل : كلّ واحد منّا بنفّذ ما هو مطلوب منه . رئيس الجمهورية بيشتغل كرئيس وأنا قائد الحرس، ما في غير الروح القدس بيخش هالأرض .... ابتسم القائد وأعاد الكرة بأنه لا يريد سفك الدماء .

### فؤاد شهاب وبعده الاجتماعي والإنمائي

أدرك الرئيس شهاب بأنّ لا ديمومة للبنان سوى بالعمل الإنمائي المستمر . فالشهابية ليست عقيدة أو فلسفة سياسية، بل هي مجموعة دراسات ومناهج وخطط تقي بحاجة المواطنين لأمد طويل ، وهي عمل متواصل دؤوب ضمن إطار القوانين والمراسيم المستحدثة، أنجز منها ما أمكن أثناء الولاية الشهابية ، ويا حبذا لو تابرت الدولة من بعده على إكمال هذه المشاريع (تقرير إرفد) لربما تلافينا الكثير من الأحداث الأليمة التي مرّقت أوصال البلاد . أريد ألا استرسل في نظريات تبحث في طرق الإنماء ، بل أكرر ما قلت من أنّي سأروي بعض ما عشته ولاحظته في نهج الرئيس شهاب .

في ربيع 1961، أراد الرئيس شهاب الانتقال إلى الجبل لأنّ قرينته يؤلمها الحرّ والرطوبة، فتمّ استئجار منزل في عجلتون، زاره الرئيس مستطلعاً وفي طريق العودة إلى جونيه، مروراً بقرى المنطقة، لأنّ الأوتوستراد كان يزال قيد الدرس، وكانت وزارة الأشغال قد نشطت بالطبع في تأهيل الطريق القديمة لأنّ الرئيس سيسلكها ... أخطر الجندي السائق بتخفيف السرعة بسبب البلوكاج، وإذ بعامل من الورشة ينادي الرئيس ويستغيث بأنه رب عائلة من سبعة أشخاص وما يتقاضاه كميوم لا يكفي إلا لقمة العيش. سمع له الجنرال، ثم أمرني بأن أجتمع به لاحقاً وأقدم له مبلغاً من المال كمساعدة ... أجبت: سيدي، لقد سلّمت ما خصصته من مساعدات لمن سمّيتهم، ولم يبقى معي أيّ رصيد، وسأعيد الكرة في الشهر المقبل بناءً لطلبكم. فقاطعني قائلاً: "إنّك على علم بأنّ زيادة طرأت على مخصّصاتي كرئيس، فيمكننا التصرف بهذه الزيادة. على كلّ أنا لن أتناول قطعة بفتاك أكبر، وزوجتي لن تتنوع في ملابسها. هذه الزيادة سأرى لمن أوصي بها. وجم قليلاً ثم استترد: أمنيّتي الكبرى أن أجعل كلّ لبناني مكتفياً بما ينتج، وسعادتي ستكون كاملة يوم يتحقّق مشروع الضمان الإجتماعي في لبنان.

وفي الواقع، يوم إقرار الضمان في لبنان، زار الرئيس شهاب القصر الجمهوري في بعبدا، مدوّناً شكره للدولة في سجل التشرّيفات.

عام 1965، وكنت ضابطاً في أركان القيادة، كلّفت بمهمة تفقّد مراكز الجيش المتقدّمة في الجنوب. وقبل وصولي إلى قرية ميس الجبل الحدودية، شاهدت ورشة أشغال على الطريق الفرعية وساحة عامة مؤهلة تحيط بها الأشجار النضرة، وإذ بتلامذة مدرسة رسمية في فرصة الساعة العاشرة، ومعهم بعض الأساتذة. تحدثت إلى مدرّس منهم، منوّهاً بالمشاريع الإنمائية التي تنقذ في القرية، ومشيراً إلى أنّ نواب المنطقة ناشطون في هذا المضمار، فأجاب المعلم فوراً: كلا نحن لا نعرف نوابنا، إنما نعرف رجل دولة واحد فكّر فينا وفي القرى المجاورة، من دون منّة، وهو الرئيس السابق فؤاد شهاب. فقد تحقّق لنا في عهده الطريق والمدرسة وشبكة الكهرباء. والآن يحفرون لجرّ مياه الشفة، وقرياً سنحصل على الهاتف ... فؤاد شهاب ومشاريعه جعلتنا نشعر بأننا لبنانيون ....

خطّط فؤاد شهاب لإنماء المناطق جميعها، وسعى إلى تحقيق اللامركزية الإدارية والاقتصادية، ولربّما خصّ قضاء كسروان باهتمام خاص خلال مرفأ جونيه والأوتستراد ... لكنّه صمّم أيضاً لتأهيل المرافئ اللبناية من الشمال إلى الجنوب. وحقق طريق القمم من إهدن وبشريّ وأرز تنورين والقلوق وأفقا وأهمز والقلبعات وكفيا والمتن الأعلى، إلى المديرج وبيت الدين فجزّين، فالى مرجعيون في أقصى الجنوب. وسعى لإيجاد استقلالية اقتصادية لكل منطقة، وحدّ من الهجرة حتّى في الداخل، مع مجابهته الصعوبات، التي ما انفكّ السياسيون التقليديّون يفتعلونها. لقد أراد أن يبقى أهل الرف في قراهم وأرضهم، وأن يحول دون قيام حزام الفقر حول المدن ولا سيّما بيروت. شجّع الصناعات الحرفية في هذه القرى، وأوجد أبواب التسويق لها (مشروع زراعة دوار الشمس مكان حشيشة الكيف)، وأنشأ مصالح رسمية مستقلة لتلافي معوقات الإدارة، مؤمناً أسواق تصريف للإنتاج الزراعي والحرفي اللبنايين، ومنها مكتب الفاكهة والمشروع الأخضر ومكتب القمح ومكتب الشمندر السكرّي .... ثبت الأمن في الجمهورية بالرغم من أحداث هامّة حصلت في الجوار العربي، إذ عندما يستتبّ الأمن تقدّ الرساميل الأجنبية وتقام المشاريع الإنمائية التي توفّر أبواب العمل للمواطنين.

كان الرئيس شهاب يردّد باستمرار بأنّ الواجب الوطنيّ يقضي بإيجاد لا أقلّ من عشرين ألف حقل عمل للشبيبة الطالعة سنويّاً، فعندها نحدّ من الهجرة، ولا سيّما هجرة المثقّفين والإختصاصيين والحرفيين.

أراد الرئيس شهاب المحافظة على البيئة وعلى جمال أرض لبنان الطبيعيّ. فأولى اهتماماً خاصاً للتنظيم المدني، ولا سيّما على الشواطئ، ولم يسمح قطعاً بالتعدّي على الأملاك العامة، ومنها الأملاك البحرية، مهما كان السبب والكثير ممّا يعلم كيف تمّ هدم غرفة أقيمت على شاطئ المتن الشماليّ بحماية بعض المتزعمين.

أين نحن اليوم من الإنشاءات البحرية التي كست وشوّت شاطئنا المتوسطي، والتي إلى الآن لم تقي بما عليها من رسوم للصندوق العام؟

في ربيع 1964، وقبل نهاية ولاية الرئيس شهاب، كنت من القلائل اللذين على اطلاع بعدم إمكانية تجديد أو تمديد الولاية، ولذلك طلبت إليّ قرينته أن أسعى لشراء سيارة جديدة "راكزة" Sobre نوعاً ولوناً، تحضيراً لمرحلة



التقاعد النهائي . فتمّ شراء سيارة شفروليه Chevrolet، سجّلت سرّاً باسم اللواء فؤاد شهاب، باهتمام من المرحوم الرئيس الياس سركيس ، مدير عام الرئاسة آنذاك . وقد دفعت الموجبات المالية كاملة، مع أنّ رئيس الجمهورية معفى من مختلف الرسوم، بموجب الأنظمة المرعية .

عام 1967، عينت في قيادة الجيش، في وظيفة تعنى بشؤون جميع العسكريين، وقد شغلت هذه الوظيفة حتى نهاية 1970 . وأشهد أمام الله بأنّ الرئيس شهاب استفسر منّي مرّة واحدة فقط عن إجراء عسكريّ محض ، فأجبت بأنّ قانون الجيش مع تعليماته التطبيقية يقضي بهذا التدبير ليس إلا . عندها بدا مطمئناً Satisfait. مردداً : حافظوا على الكتاب واحترموه . أمّا الذين راجعوني في الموضوع فهم جهلة لا يحترمون النظام .

أولّ صيف 1970، وكان الرئيس شهاب ما زال على موقفه وعزوفه عن الترشيح لرئاسة الجمهورية، تحدّثت إليه مفيداً بأنّ الوضع العام يندر باحداث خطيرة : الإنتقادات تطال الجيش وتؤثر على معنويات الجند، ولربّما ندخل المجهول ... كنت متيقناً بأنّ أكثرية مطلقة ستتخب مجدداً اللواء فؤاد شهاب، وأولهم كتلة المرحوم الرئيس سليمان فرنجية ... فأجاب مقاطعاً بالنفي، وبأنّ مرشّحه هو الأستاذ سركيس . ثمّ أضاف : أنا يا ابني، عندي برنامج للإنماء يقضي بتغيير سبل الحكم كلياً، ولا يمكنني تحقيقه إلا بالطرق الديمقراطية، أي بموافقة مجلس النواب، ومع الأسف لا يزال الشعب اللبناني متمسكاً بزعمائه التقليديين. فلا إمكانية لهذا التغيير قبل 25 سنة Une Génération (وقد شرح نظريته هذه في رسالته الهامة بتاريخ 4 آب 1970). ثمّ ذكرني بتصرف أحد الوزراء أيام حكمه، مركزاً على أنّ العقلية السائدة هي تجاوز القوانين والأنظمة. أمّا ذلك التصرف فقد حصل كما يأتي :

عام 1963 ، أمّن برنامج النقطة الرابعة للبنان منحة تخصّص لمهندس زراعيّ لمدة سنة في الولايات المتحدة الأميركية . وبموجب النظام أجرت الخدمة المدنية امتحاناً لختيار المهندس الأول تصنيفاً .... وقبل إعلان النتيجة النهائية، عين الوزير المختصّ مهندساً كان في المرتبة الثانية ، وأوفده لمتابعة هذه الدورة .... علم مجلس الخدمة المدنية بالأمر، وعارض القرار بالطبع .... فتألّم الرئيس شهاب لهذا الإجراء المخالف لدور المؤسسات ... وصبيحة يوم مجلس الوزراء حضر الوزير إلى رئاسة الجمهورية باكراً وصرّح أمامي بأنّه أوفد المهندس الثاني لأنّه من منطقته ويؤمّن له حوالي 500 صوت في الإنتخابات . وهو غير نادم على قراره هذا، لأنّ الأول لا يفيد في شيء . استدرك رئيس الوزراء المرحوم رشيد كرامي هذه الحالة، وسعي لإبقاء الوزير في مركزه، لأنّه رئيس كتلة نيابية تعطي الثقة للحكومة. ثمّ أفتي بحلّ يقول بتأمين منحة ثانية يوفد بها لاحقاً الأول لمتابعة تخصّصه . ترك هذا التصرف ذكرى أليمة لدى الرئيس شهاب ... لذلك ذكرني به، علم 1970، معلّقاً بأننا لا نزال حيث نحن، وهو لا يمكنه الحكم إلا بإرادة الشعب ... لكنّه، وقبل وفاته بقليل، ندم على قراره بعدم الترشيح .

في نيسان عام 1973، وقبل وفاته بأيام وجيزة، قابلته لأشكره على اهتمامه الإنساني، إثر حادث أليم ألمّ بعائلتي، يومها كان منفعلاً للغاية، يمجّ سيارته بإلحاح، ويتحسّر على ما آل إليه حال البلد . وقد توقع ذلك المساء أمامي، بأنّ الدولة ستتهار، والجيش سينقسم، والطائفية ستهدم كلّ شيء، وستسيل الدماء بغزارة . ويا ويلنا إنّ أنت سلطة خارجية تتحكّم بالبلاد وبرقاب العباد ... ورأيت دمعة تترقرق من عينيه . وتلك هي المرّة الثالثة أرى فيها اللواء شهاب متحسراً باكياً. وكانت الأولى يوم زار الرئيس الشيخ بشاره الخوري وهو يحتضر، وكنت يرفقته، فقال لدى خروجه من المنزل : اليوم نخسر رجل دولة بالمعنى الحقيقي . فليرحمه الله، وليرحم أيضاً رياض الصلح . أمّا المرّة الثانية فهي يوم فقد ابنة عمّه الأميرة أليس، وقد أقام لها مأتماً خاشعاً Discret في بلدتهم غزير . يومها تذكر أحواله والمرحومة والدته التي كان لها عنده احترام فائق وحبّ لا حدّ له .

في ذلك المساء من عام 1973، حضرت قرينته ورجته بأن يهدىء من روعه وانفعاله *Sinon tu vas claquer*

وقالت لي : أنظر إته منذ مده وهو على هذه الحال، فلا سكينه ولا راحة له، واليوم بالذات قد أحرق بيديه أوراقاً ومستندات هامّة ... أظنها كانت معدّة لتدوين بعض المذكرات أو ما شابه، أجاب الرئيس : سألزم الصمت نهائياً وأطلب إليكم من جديد أن تلتزموا بدوركم الصمت عني . وقبل أن استأذنه بالخروج والعودة إلى وظيفتي في مرجعيون، علم بأنني سأعود إلى بيروت لأكون على مقربة من أولادي القصر .... وأضاف لربما بعد اسبوعين ستعود لزيارتي ، لكنك سوف تتعثّر في طريق عودتك إلى بيروت ، لأنّ الواقعة تكون قد وقعت وبدأ القتال بين الجيش والأطراف المسلّحة . إلاّ أنّه، بعد ثلاثة أيام، توفي فجأة، إثر نوبة قلبية حادة ... وقد شاءت مدام شهاب أن أكون شخصياً ضابط ارتباط بمعيرة المرحوم الدكتور بطرس ديب ، مدير عام الرئاسة لتدبير حيثيات الجنازة وما يتبعها . وفي اليوم الأخير من تقبل التعازي ، وانا في منزل الرئيس شهاب في جونية ، وردني اتصال من قيادة الجيش بأنّ الطريق في نهر الكلب قد قطعت وتنشب معركة مسلّحة بين الجيش ومسلي مخيم ضبيه .... وعليّ أن أبقى المعزّين في جونية ريثما يتوقّف القتال ....

سيدي اللواء ، يا أيها القائد النبيل، كان لي شرف أن أكون ضابطاً مرافقاً لك وما زال . إته لفخر كبير أنعم به على مدى الحياة . لقد تعلمت منك الكثير، وفهمت كم هو محقّ ومجدّ عملك المؤسساتي . وإني أتفهم اليوم مدى تطلعاتك المستقبلية لإسعاد كلّ فرد من لبنان ... شاؤوا التغيير من بعدك فتعثرت مسيرة الإنماء . وصدقت ، مع الأسف، توقعاتك في خراب الشأن العام .

سيدي الرئيس، ذكراك وتعاليمك باقية أبداً في كلّ ضمير حيّ . نتمنّى باستقامتك وإخلاصك للبنان، يا من عملت من دون كلل حتّى آخر يوم من حياتك . ومن يصدّق أنّ وزنك انخفض أكثر من 15 كلغ بنهاية ولايتك ! فأنت الزاهد بكلّ ما هو ماديّ . قدرك واحترامك ووقارك باقي في الأذهان، وقد كنت تردد بالفرنسية: *Pour vivre heureux, vivons cachés* . أجل اعتبر بعضهم بأنّ العشب سينبت على درج بيتك المتواضع بعد 1964، ولكنّ ظلّ المخلصون يقصدونك ويتسابقون للقيام والإسترشاد بمواقفك الوطنية الصافية حتّى آخر ساعة من حياتك .

سيدي اللواء (كنت تبتسم بحياء لدى سماعك هذا النداء وتؤثره على نداءات الفخخة الفارغة) يا من أحبّ لبنان وكلّ اللبنانيين الشرفاء البسطاء الباقين على إبانهم وإنسانيتهم ووطنيتهم الطيبة : فهؤلاء هم بحاجة إلى أمثالك اليوم لتستقيم الأمور وليعود الاستقرار والرفاه إلى ربوع كلّ لبنان . نحن بحاجة، نعم ، لإيقاف هجرة صفوة شبابنا الجامعيين والمتفوقين ، وأولادي من بينهم ، طالبين كرامة العيش وحرية المسرى في بقاع الأرض قاطبة . لست بالمتشائم ، بل إني أوطد الأمل كما كنت تفعل ، ولا بدّ لعنمة الظلمة التي يتخبّط فيها لبنان أن تنقشع ... فهل قربت نهاية القضية الفلسطينية وتأمين لشعب فلسطين وطن السيادة والاستقلال؟! عندها ، لا بدّ من أن يتسلّم زمام الحكم في لبنان شباب مسؤول يسير على خطاك ومبادئك ، فيعود وطننا مشعلاً للديمقراطية والحرية والتقدم في محيطنا الشرق أوسطي .

سيدي الرئيس ، أذكرك في مسراي اليومي: أتعظ بمواقفك الوطنية الصادقة ، أتمنّى بصفاء رؤياك ونقاء يديك الشريفتين، أصلي لك ... وسلام على كلّ حبة تراب ضمّتك في أرض لبنان، في غزير الرابضة على مقربة من عذراء حريصا، سيّدة لبنان !  
كتبت عن حياتك الشخصية، فعذراً . وإن كتبت فلنطلع شبيبنا على ما كنت تصبو إليه من عزّة وأباء وازدهار لأبناء وطنك .



